تاريخ العرب والعالم

مجلة مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السابعة عشرة ـــ العدد ١٦٦ ـــ آذار (مارس) نيسان (أبريل) ١٩٩٧ ـــ شوال/ذو القعدة ١٤١٧هـ



الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي*
(٨٨ - ١٥٧هـ، ٧٠٧ - ٧٧٤م)

إمام بيروت والشام والأندلس

د. حسان حلاق

هو الإمام عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي (٨٨ - ١٥٧هـ، ٧٠٧ - ٧٧٤م) من مواليد بعلبك، وعاش في البقاع في قرية الكرك البقاعية يتيماً فقيراً، ثم انتقل مع أمه إلى بيروت. وكان قبل ذلك قد عاش مع عائلته في دمشق، وتنقل بين حماه وحلب وقنسرين وسواها.

أطلق عليه اسم الأوزاعي نسبة إلى الأوزاع وهي قبيلة يمنية حميرية، نزل أفراد منها في دمشق قرب باب الفراديس، وقد أطلق على المنطقة التي نزلوا فيها اسم قرية «الأوزاع». وقيل بأن هذه المنطقة كانت تعرف باسم «الأوزاع» قبل نزول تلك القبيلة اليمنية فيها. ومن المؤكد أن عمرو بن محمد والد الإمام الأوزاعي قد نشأ في قرية «الأوزاع»، ثم انتقل فيما بعد إلى بعلبك حيث رزق فيها بابنيه عبد الله وعبد الرحمن. وقد أطلق لقب الأوزاعي على من اشتهر في تلك الفترة لنزوله في «الأوزاع» ومنهم: نهيك بن مريم الأوزاعي وأبو أيوب مغيث الأوزاعي.

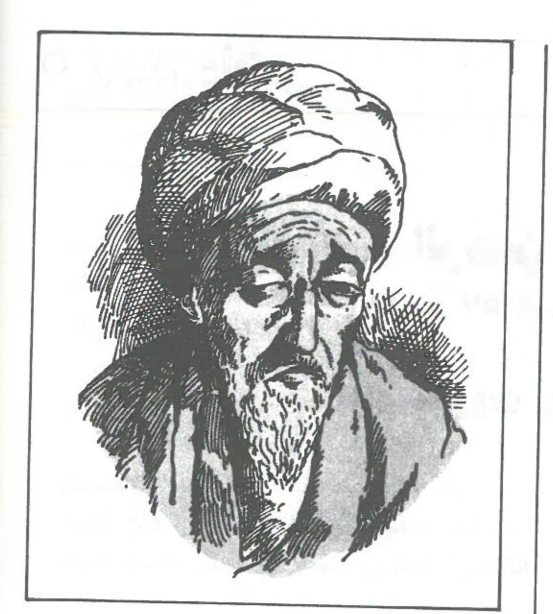
ومن الأهمية بمكان القول إن الإمام الأوزاعي عاش في عهدين سياسيين هامين، فقد شهد وعاش في العهدين الأموي والعباسي. فقد ولد في خلافة الوليد بن عبد الملك، وشهد عهود الخلفاء سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، كما شهد انقراض الدولة الأموية بمقتل مروان بن محمد عام ١٣٢هـ وولادة الدولة العباسية حيث عاصر كل من الخليفة أبي العباس والخليفة أبي جعفر المنصور.

* (دراسة ألقيت في المركز الإسلامي - عائشة بكار - بيروت في الندوة العلمية التي أقيمت احتفالاً وتكريماً ووفاء للإمام الأوزاعي في ٢٩ ذي الحجة ١٤١٤هـ - الموافق في ٩ حزيران (يونيو) ١٩٩٤م).

وكانت الفترة التي عاشها الإمام الأوزاعي تزخر بالعلم والعلماء والفقهاء والقراء والمحدثين. ومن أبرز علماء تلك الفترة الأئمة: مالك بن أنس، سفيان الثوري، الحسن البصري، محمد بن سيرين، أبو حنيفة النعمان، حماد بن زيد، الزهري، عطاء بن أبي رباح، يحيى بن أبي كثير، حسان بن عطية، معمر بن راشد، والليث بن سعد وسواهم الكثير. كما أشار ابن عساكر إلى بعض الفقهاء والمحدثين والحفاظ المعاصرين لتلك الفترة منهم: أبو عبد الرحمن القاسم، أبو عبد الله المكحول، عبد الله الربعي، أبو إدريس الأصفر، عبد الملك بن النعمان، سليمان بن بزيع، عياش بن دينار، علي وعبد الحميد بكار، وبلال بن سعد، سليمان بن موسى الأشدق، إبراهيم بن أبي عبلة، ويزيد بن عبد الله بن صالح البيروتي، وسواهم الكثيرين ممن عاشوا في بيروت وبلاد الشام، ولا تزال بعض عائلاتهم مستقرة حتى اليوم في بيروت.

ويلاحظ بأن الإمام الأوزاعي تفوق علمياً وفقهياً وجرأة على كثير من علماء عصره، وقد أفتى وهو في الثالثة عشرة من عمره في مسائل فقهية، بينما أفتى وهو في السابعة عشرة من عمره في مسائل عقدية. واستطاع في حضرة الخليفة هشام بن عبد الملك مناظرة «القدري» والتفوق عليه بل أفتى بقطع رقبته فقطعها الخليفة فوراً، في حين لم يستطع حسان بن عطية شيخ الإمام الأوزاعي من مواجهة «القدري» أو إصدار فتوى بقطع رأسه. بالإضافة إلى ذلك فقد كان الإمام الأوزاعي محدثاً وحافظاً للأحاديث النبوية الشريفة بشكل مميز كما عمل في الجرح والتعديل.

وبالرغم من أن الإمام الأوزاعي كان حريصاً على دراسة الفتاوى دراسة معمقة، غير أنه أفتى في حياته ما يقارب سبعين ألف مسألة في شتى مجالات وأنواع الفتيا.



□ الإمام الأوزاعي.

وقد أشار عمرو بن أبي سلمة أنه قال للإمام الأوزاعي: «يا أبا عمرو أنا ألزمك منذ أربعة أيام ولم أسمع منك إلا ثلاثين حديثاً. قال: وتستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام! لقد سار جابر بن عبد الله، إلى مصر واشترى راحلة فركبها حتى سأل عقبة بن عامر عن حديث واحد وانصرف إلى المدينة، وأنت تستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام».

أما فيما يختص بالقضاء فقد رفض الإمام الأوزاعي منصب القضاء في العهدين الأموي والعباسي. فلما ولي زمن يزيد بن الوليد جلس مجلساً واحداً ثم استعفى. وفي العهد العباسي حاول عبد الله بن علي توليته القضاء فاعتذر الأوزاعي. وفي رواية للذهبي في «سير أعلام النبلاء» قال: «قال عقبة بن علقمة البيروتي: أرادوا الأوزاعي على القضاء فامتنع وأبى فتركوه. فقال: قلت لعقبة: هم كانوا يكرهون الناس على ما يريدون فكيف لم يكرهوا الأوزاعي؟ فقال: هيهات إنه كان في أنفُسِهم أعظم قدراً من ذلك».

وبالرغم من رفض الإمام الأوزاعي للقضاء، غير أن القضاة كانوا يحكمون بفقهه. وجاء في طبقات الشافعية للسبكي: «كان القضاء بمصر للمالكية وفي الشام للأوزاعية إلى أن ظهر فقه الشافعي.. وأن قضاء الشام وخطابته كانا للأوزاعية ثم للشافعية بعد انتشار مذهبه في الشام، وفي الغرب للمالكية، وفيما وراء النهر لأبي حنيفة».

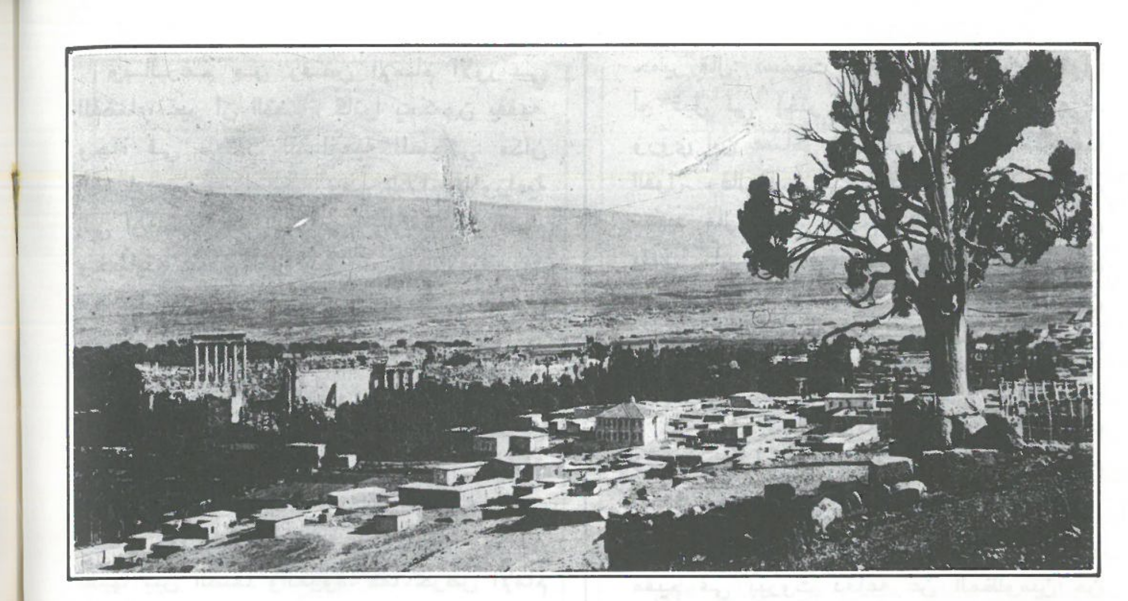
والحقيقة فإن العلماء حرصوا على تقدير الإمام الأوزاعي، والاعتراف بفضله واحترامه. ولم ير سفيان الثوري غضاضة في أن يمسك في مكة المكرمة بزمام ناقة الأوزاعي ويعبر بها بين الناس، ويقودها والأوزاعي عليها بين الصفا والمروة. كما حرص الإمام مالك على تكريم الإمام الأوزاعي عندما اجتمعا في موسم الحج. وقد روى ابن كثير في «البداية والنهاية» عن سفيان بن عيينة قال: «كان الأوزاعي إمام أهل زمانه، وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري آخذ بزمام جمله ومالك بن أنس يسوق به والثوري يقول: أفسحوا للشيخ، حتى أجلساه عند الكعبة وجلسا بين يديه يأخذان عنه». وروى ابن عساكر بسنده عن إسحق الفزاري قال: «لو كان الأوزاعي في أصحاب رسول الله ﷺ لكان فيهم وسط. قال المرجي: فأخبرت أبي فقال: بل هو عندي كان يكون من أكبرهم».

هذا وقد عظّمه كثير من العلماء وامتدحوه مدحاً يؤكد على تبوّاه المرتبة الأولى بين علماء عصره ومن بعد عصره. ومن هؤلاء الإمام الشافعي وأبي زرعة الدمشقي وابن عيينة وأبي إسحق الفزاري وابن مهدي واسماعيل بن عياش وسعيد بن بشير ومحمد بن سعد وأبي نعيم الأصفهاني وغيرهم كثير. ومما قاله الذهبي في «تذكرة الحفاظ» قال: «قال الحاكم: الأوزاعي إمام عصره عموماً وإمام أهل الشام خصوصاً». وروى أبو زرعة الدمشقي عن محمد بن حمير قال: «سمعت أبا إسحق الفزاري يقول: لو قيل لي: إختر للأمة لاخترت الأوزاعي». وروى ابن عساكر عن علي بن بكار مثل هذا القول. وقال الرازي بسنده عن عبيد الله بن سعيد قال: «سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: كان الأوزاعي إماماً في السنة». وروى القاسم بن سلام قال: «أخبرني عبد الرحمن بن مهدي قال: ما كان بالشام أحد أعلم بالسنة من الأوزاعي».

وحارب الإمام الأوزاعي البدع والجدال وقال: «إذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل».

ومن أهم مميزات الإمام الأوزاعي وهو مقيم في بيروت دفاعه عن المظلومين من المسلمين والنصارى على السواء. وقد برز بشكل واضح في مسالة دفاعه عن نصارى جبل لبنان إبان ثورة المنيطرة في عام ١٤٢هـ/٧٥٩م تقريباً من أفقا. وقد امتدت الثورة إلى البقاع، واقتربت نحو بعلبك مركز الوالي العباسي، وكان الوالي صالح بن علي قد وجّه إلى جبل لبنان جنوداً لإخماد الثورة، فعمد هؤلاء إلى إخمادها ومقاتلة الثوار وقتلهم، ثم أمر الوالي العباسي بإجلاء قوم منهم من جبل لبنان إلى مناطق أخرى. وقتل في هذه الأحداث بعض الأبرياء من أهل الذمة النصارى؛ لذا أرسل الإمام الأوزاعي رسالة مطولة إلى الوالي صالح بن علي أشار إلى بعض منها البلاذري في «فتوح البلدان» وابن سلام في «الأموال» ومما جاء في هذه الرسالة:

«... وقد كان إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى «ألا تزر وازرة وزر أخرى» وهو أحق ما وقف عنده واقتدي به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية



□ بعلبك مسقط رأس الإمام الأوزاعي.

رسول الله ﷺ فإنه قال: «من ظلم معاهداً وكلّفه فوق طاقته فانا حجيجه». ومن كانت له حرمة في دمه فله في ماله والعدل عليها مثلها، فإنهم ليسوا بعبيد فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة، يرجم محصنهم على الفاحشة ويحاص نساؤهم نساءنا، من تزوجهن منا القسم والطلاق والعدّة سواء...».

وكان لهذه الرسالة الأثر الإيجابي بالنسبة للنصارى في جبل لبنان، حيث أذعن الوالي لمطالب الأوزاعي، فأوعز إلى عماله بمعاملة النصارى معاملة حسنة، لا سيما الأبرياء منهم وإعادة المهجرين إلى قراهم.

ويبدو أن الإمام الأوزاعي بات الملجأ والملاذ ليس للمسلمين وحسب، وإنما المدافع أيضاً عن أهل الذمة استناداً إلى القرآن الكريم والسنة النبوية. لذا كتب مرة إلى الوالي أبي بلج حضه على معاملة أهل الذمة والرعية كافة معاملة حسنة.

ويروى عن الإمام الأوزاعي رفضه باستمرار للهدايا سواء مقابل خدمة اداها أم لم يؤدها. ففي إحدى المرات شكا إليه رجل من أهل الذمة من القاع عدم مقدرته على دفع قيمة الخراج وهو ابن الأزرق وكان عاملاً لأبي جعفر على الخراج، واستطاع الإمام الأوزاعي أن يقضي حاجة الذمي. فما كان من الذمي إلا أن أهدى الإمام قمقماً من العسل، فرفض الإمام إلا أن يدفع ثمنه وقال له: إن شئت قبلنا منك وقبلت منا، وإلا رددت علينا. فاخذ النصراني الدنانير وأخذ الإمام الأوزاعي القمقم.

وفي رواية أخرى أن أحد المحدثين قدم إليه من مكة ليسمع منه، فأهداه طرائف من طرائف مكة. فقال له الإمام الأوزاعي: «إن شئت قبلت هديتك ولم تسمع مني حرفاً، وإن شئت فاقبض هديتك واسمع».

وكان الإمام الأوزاعي يرفض الكذب والكذب غير المقصود والذي يسمى «الكذب الأبيض» فقد حدث مرة أن خرج من باب المسجد في بيروت، فرأى رجلاً يبيع الناطف وآخر يبيع البصل وهو يقول: يا بصل يا أحلى من العسل، أو قال أحلى من

الناطف. فقال الأوزاعي: «سبحان الله، أيظن هذا أن شيئاً من الكذب يباح؟ فكان هذا يرى في الكذب بأساً».

لقد كرم الله عز وجل الأوزاعي، وقد روى الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام» عن عمرو بن أبي سلمة بأنه سمع الإمام الأوزاعي يقول: «رأيت كان ملكين نزلا فأخذا بضبعي فعرجاني إلى الله تعالى وأوقفاني بين يديه فقال: أنت عبدي عبد الرحمن الذي تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر. فقال: بعزتك رب أنت أعلم، قال: فرداني إلى الأرض».

وفي رواية ابن عساكر في «تاريخ دمشق» بسنده عن محمد بن الأوزاعي قال: قال أبي: «يا بني أريد أن أحدثك بشيء ولا أفعل حتى تعطيني موثقاً أنك لا تحدث به ما دمت حياً، قال: فقلت: أفعل يا أبت، قال: إني رأيت فيما يرى النائم أني دخلت الجنة فإذا برسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وهم يعالجون مصراع باب الجنة، فإذا ردوه زال، ثم يعالجونه فإذا ردوه زال، قال: فقال لي رسول الله ﷺ: يا عبد الرحمن ألا تمسك معنا؟ فقال: فجئت فأمسكت معهم فثبت».

وفي رواية أخرى قال الوليد بن مسلم البيروتي: «رأيت النبي ﷺ في منامي فقلت يا رسول الله عن من أكتب العلم؟ فقال: عن الأوزاعي، فقلت له: عن عبد الله بن سمعان، قال: لا، عن الأوزاعي». وأكد الكثير مثل هذه الروايات منهم: الحافظ الذهبي، وبشر بن بكر، وابن كثير، والجوزي، ومحمد بن شعيب وغيرهم، وهناك أحاديث عن هؤلاء وسواهم «أن عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي خير من يمشي على الأرض».

وعن عمير بن عفان والعباس بن الوليد البيروتي وعن أبناء بيروت المعاصرين للإمام الأوزاعي أن بعضهم عندما كانوا يدخلون إلى منزله في باطن بيروت، فيجدون مكان مصلاه رطباً من كثرة دموعه أثناء الليل ووقت الصلاة. وقد أكدت زوجته أن هذه الرطوبة والبلل من أثر دموع الشيخ من بكائه في سجوده، وهكذا يصبح كل يوم.

الإمام الأوزاعي إمام بيروت والشام والأندلس

استطاع الإمام الأوزاعي بعلمه وفضله وأخلاقه وجهاده أن يكون قدوة حسنة في الدين والدنيا، لذا انتشر مذهبه في بيروت وبلاد الشام والأندلس، كما تأثرت به مناطق عديدة من الولايات العربية والإسلامية نظراً لتنوع رحلاته وتلامذته.

والحقيقة فإن مذهبه وعلمه لم يتيسر لهما الانتشار كثيراً إلا بعد مكوثه في بيروت مرابطاً لأن أكثر سني حياته المنتجة والغزيرة قضاها في بيروت.

ومن الثابت من خلال الدراسات التاريخية والفقهية أن الإمام الأوزاعي (رضي الله عنه) غادر دمشق قبل دخول العباسيين إليها، متوجهاً إلى بعلبك فالكرك في البقاع، ثم توجه بعد أيام إلى حماه لملاقاة عبد الله بن علي، ومن حماه توجه إلى بيروت في ٩ رمضان عام ١٣٢هـ رافضاً مشاهدة الفتنة والاقتتال بين المسلمين. وعندما وصل الإمام إلى بيروت قال: «أعجبني في بيروت أني مررت بقبورها فإذا امرأة سوداء في القبور فقلت لها: أين العمارة؟ (ويقصد المدينة) فقلت: إن أردت العمارة فهي هذه ـ وأشارت إلى القبور ـ وإن كنت تريد الخراب فأمامك ـ وأشارت إلى البلد ـ فعزمت على الإقامة بها». وأكد الإمام الأوزاعي أنه جاء إلى بيروت مرابطاً للدفاع عن الثغور الإسلامية.

وبالفعل فقد سكن الإمام الأوزاعي في باطن بيروت إزاء البحر في منطقة عرفت لقرون عديدة باسم منطقة الأوزاعي، ثم تحول اسمها تباعاً إلى «درب الطويلة» ثم

إلى «سوق الطويلة». وكان منزله يغص باستمرار بأبناء بيروت والشام ومكة وأبناء ولايات عربية عديدة. ثم تحول منزله إلى زاوية يصلى فيها وتعقد فيها الاجتماعات الدينية والسياسية والاجتماعية. وباتت بيروت والأوزاعي توأمان لا ينفصلان في الجهاد والرباط على طول الساحل الشامي. ومنذ أن توطن الإمام الأوزاعي في بيروت استحدث المسلمون الذين اعتنقوا مذهبه مبدأ جهادياً يقوم على إرسال المجاهدين إلى بيروت للدفاع عنها وعن الثغور الشامية، وكان في مقدمة من اعتنق هذا المذهب أبناء بعلبك الذين كانوا يرسلون سنوياً مجموعة من الشبان للمرابطة في بيروت، لذا أنشىء لهم خصيصاً برجاً عسكرياً كان بمثابة ثكنة عسكرية عرف باسم «برج البعلبكية» كان من أهم أبراج بيروت العسكرية للمدافعة عن الثغر، واستمر هذا التقليد البعلبكي الإسلامي لقرون عديدة حتى العهد العثماني حيث كان ما زال البرج قائماً. وقد أشار المؤرخ صالح بن يحيى في «تاريخ بيروت» إلى هذا البرج وأهميته العسكرية، وأسرة «البعلبكي» في بيروت ليست هي سوى نتاج تلك المرحلة من تاريخ بيروت وجهادها ورباطها، كما نصح سفيان الثوري صاحبه حسان بن سليمان بالرباط في بيروت، ولما سأله لماذا؟ قال: عليك ببيروت فإن فيها الإمام الأوزاعي. لهذا نرى أن مذهب الإمام الأوزاعي لم يكن مذهباً قائماً على القول والنظرية، بقدر ما كان قائماً على الفعل والتطبيق. فقد صنف الإمام العديد من المصنفات الفقهية والعلمية يأتي في مقدمتها أربعة كتب هي: المسند، السنن في الفقه، المسائل في الفقه، والسير. كما كتب أربعة عشر كتاباً بعد مجالسته شيخه يحيى بن أبي كثير في اليمامة. ولكن مما يؤسف أن أكثر هذه المصنفات، بما فيها بعض رسائله وسبعين ألف فتوى لم نجدها، بل فقدت نتيجة للحروب والزلازل والحرائق التي حدثت في بيروت أو في مناطق أخرى عبر سنوات عديدة وقرون عديدة. بينما حفظ لنا الإمام الشافعي (رضي الله عنه) المتوفى عام ٢٠٤هـ كتاب الإمام الأوزاعي «السير» بإثباته في كتاب «الأم». وتشير بعض الدراسات إلى أن جامعة القرويين في المغرب تحتفظ بمجلد ضخم مخطوط من مصنفات الإمام الأوزاعي. غير أن تلامذته ومريديه نسخوا في عصره وبعد وفاته تلك المصنفات أو بعضها، مما أسهم في انتشار مذهبه في أرجاء عديدة من العالم الإسلامي، وما تزال بعض آثاره وتعاليمه ومذهبه قائمة حتى اليوم في بلاد الشام. وقد انتشر مذهبه في الشام حوالي ٢٢٠ سنة دون انقطاع، كما انتشر لمدة أربعين سنة بعد وفاته في بلاد المغرب والأندلس بواسطة الفقيه صعصعة بن سلام الشامي الذي حمله إلى مصر وحدث به فيها وروى عنه موسى بن ربيعة الجمحي، ثم انتقل به إلى المغرب والأندلس فلقي قبولاً واستحساناً من المسلمين لتوافقه مع طبيعتهم وعقيدتهم الجهادية فاتبعوه. وأشار الحميدي في «جذوة المقتبس» بأن الفقيه الأندلسي زهير بن مالك البلوي أبو كنانة كان «يفتي بقول الأوزاعي» وكان معاصراً لعبد الملك بن حبيب السلمي.

هذا وقد عمد الكثير من أبناء بيروت والشام والمغرب لقرون عديدة على الإقامة قرب منزله وزاويته تقرباً وتبركاً. واشتهرت بيروت بالإيمان والتقوى من خلال إمامها الأوزاعي، بدليل أن الشيخ محمد بن خضر ابن عراق الشافعي المتوفى عام ٩٢٣هـ، حرص على اتخاذ إقامته وزاويته إزاء زاوية الإمام الأوزاعي، وذلك في أوائل العهد العثماني. واستمرت - وما تزال - النذورات من البيروتيين واللبنانيين لسنين وعصور طويلة تقدم إلى ضريحه ومسجده في منطقة الأوزاعي.

هذا وقد أوقف أبناء بيروت الكثير من الأوقاف إلى مقام الإمام الأوزاعي، المتضمنة

أراض ودور وبساتين وأموال. وقد اطلعت شخصياً على وثائق هذه الأوقاف في سجلات المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة. ومن بين أوقافه (رضي الله عنه) الضائعة ضمن الحدود المبينة في وثائق الوقف: قبلة: أراضي الغدير، ومن الشمال: أراضي وطا بطينا، ومن الشرق: طريق صيدا القديمة، ومن الغرب: البحر المالح. وضمن هذه الأراضي مما يلي سهل بئر حسن، مقام سهل ابن مهاجر المعروف مقامه بشيخ الضهرة (مكان المدينة الرياضية اليوم).

وبمعنى آخر فإن أوقاف الإمام الأوزاعي كانت تضم الأراضي الممتدة من مار الياس إلى منطقة الكولا، بما فيه منطقة الطريق الجديدة، امتداداً إلى طريق الشويفات وصيدا القديمة. ثم تمتد هذه الأراضي من جهة الشمال بحدودها إلى جهة الجنوب حتى منطقة الغدير. وكل هذه الأراضي تمتد حتى البحر غرباً.

ومن المؤسف أن هذه الأوقاف ضاع بعضها في العهد العثماني، وضاع أكثرها في عهد الانتداب الفرنسي وعهد الاستقلال، حيث وضعت الدولة يدها عليها، كما وضع بعض رجال الدولة على بعضها الآخر، وسجلت صكوكاً وسندات ملكية رسمية، والمسلمون غافلون عما آلت إليه أوقافهم.

وفاة الإمام الأوزاعي (رضي الله عنه)

توفي الإمام الأوزاعي يوم الأحد في ٢ صفر من عام ١٥٧هـ. وكان في التاسعة والستين من عمره في خلافة أبي جعفر المنصور. وحول وفاته اتفق الرازي وقبيصة وابن عساكر وأحمد بن مروان وسفيان الثوري والحافظ الذهبي ومحمد بن عبيد وسواهم، من أن رجلاً أتى سفيان الثوري وقال له: يا أبا عبد الله رأيت في المنام كأن ريحانة قلعت من الشام. فقال له سفيان: إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعي. قال: فجاء رجل إلى سفيان فقال: أعظم الله أجرك في أخيك الأوزاعي فقد مات.

وكان سبب وفاته أنه طلب من زوجته إدخال كانون من الفحم المشتعل إلى الحمام ليتدفأ عليه وهو يغتسل، مما أسفر عن انتشار غاز الفحم في الحمام فأغمي عليه، ثم توفي خنقاً لعدم قدرته على فتح باب الحمام. ولما تنبهت زوجته فتحت الباب فوجدته متوسداً ذراعه إلى جهة القبلة.

وفي رواية أخرى لسبب الوفاة أن الإمام الأوزاعي كان في حمام السوق فزلت قدمه في داخله فأغمي عليه حتى مات. غير أن عقبة بن علقمة البيروتي وبإجماع المؤرخين والمعاصرين أكدوا على الرواية الأولى.

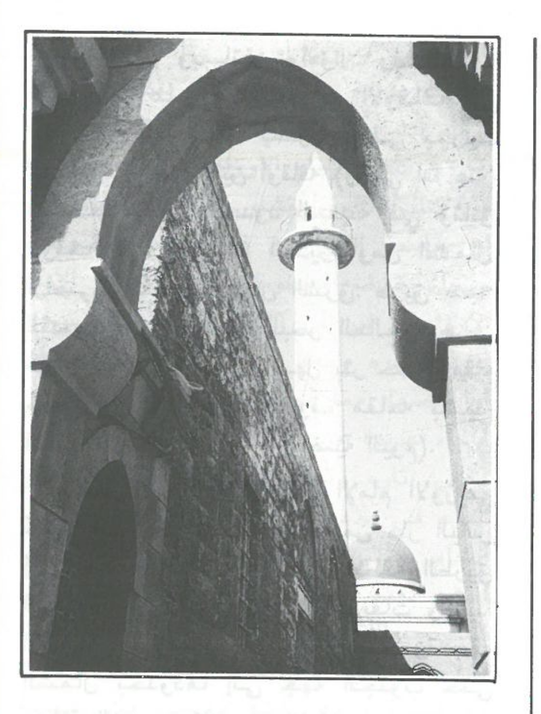
وعند وفاة الإمام الأوزاعي - رحمه الله - لم يعثر في منزله إلا على سبعة دنانير صرفت على جنازته، بالرغم من أن الخلفاء الأمويين والعباسيين كانوا يكرمونه ويمدونه بالمساعدات والمال التي بلغت نحو سبعين ألف دينار، غير أنه أنفقها على الرباط والجهاد والمجاهدين وعلى الفقراء والمساكين وعلى وجوه البر والإحسان، كما وضع قسماً كبيراً مما وصله في ديوان بيروت الخاص بالعطاءات متعددة الوجوه.

كانت وفاة الإمام الأوزاعي حدثاً غير عادي نظراً لمقامه وكراماته ومواقفه، فقد روى الرازي بسنده عن سالم بن المنذر أن المسلمين والنصارى واليهود والأقباط خرجوا في جنازته من باطن بيروت مروراً بالضواحي ومناطق الرمال وصولاً إلى حرج صنوبر منطقة حنتوس التي عرفت فيما بعد بمنطقة الأوزاعي. وكانت بيروت المحروسة بجميع مناطقها وأحيائها وطوائفها قد خرجت للقاء جثمانه الطاهر مودعة باكية إمامها الجليل. ومن المناظر التي استرعت اهتمام المشيعين أن الكثير من النصارى قد خرجوا باكين متألمين يذرون الرماد على رؤوسهم

تعبيراً عن حزنهم على الإمام الذي وقف معهم زمن المحنة. ولا ندري مدى صحة الرواية التي أوردها الشيخ عبد الغني النابلسي، من أنه يوم وفاة الأوزاعي أسلم من اليهود والنصارى نحواً من ثلاثين ألفاً. وقد أشار إلى الرواية ذاتها عبد الحق الإشبيلي في كتاب «العاقبة».

وروى الرازي بسنده عن عبد الحميد بن حبيب قال: «لما سوينا على الأوزاعي تراب قبره قام والي الساحل الأمير أرسلان بن مالك بن المنذر اللخمي جد آل أرسلان عند رأسه فقال: رحمك الله يا أبا عمرو، فوالله لقد كنت لك أشد تقية من الذي ولاني، فمن ظُلم بعدك فليصبر». وجاء في ابن عساكر بسنده عن ابن أبي العشرين قال: «سمعت أميراً كان بالساحل يقول ـ وقد دفنا الأوزاعي ونحن عند القبر ـ رحمك الله أبا عمرو فلقد كنت أخافك أكثر ممن ولاني «أي المنصور». وقد تبين أنه اجتمع للصلاة عليه ما لا يحصى عددهم لكثرتهم. كما أشارت المصادر التاريخية والفقهية بأن البيروتيين والشاميين والأندلسيين قد أطلقوا بمناسبة وفاته اسم «عبد الرحمن» على كل مولود ذكر ولد بعد وفاته.

كانت سماحة الإمام الأوزاعي تتمثل بدفاعه عن الأبرياء والضعفاء من مختلف الاتجاهات والأديان. وقد أشار المؤرخ فيليب حتي إلى نبل أخلاق الإمام الأوزاعي وعدالته بقوله «إن النظرة اللبنانية الشاملة والروح اللبنانية السمحة تتجسدان في سماحة روح الأوزاعي وفي نبل أخلاقه. فإنه كان يشدد على فكرة العدل والرفق والعطف عندما كان الأمر يتعلق بالرعايا غير المسلمين.. إننا لا نعرف فقيهاً من فقهاء المسلمين أظهر من نبل العاطفة ما أظهره الأوزاعي في دعوته إلى الأخوة الإنسانية». ولا شك أن روح التحرر والتساهل التي تظهر في مذهب الأوزاعي، كانت من العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في الأندلس المسيحية».



□ ضريح ومسجد الإمام الأوزاعي.

وأخيراً لا يسعني بهذه المناسبة الكريمة مناسبة مرور (١٢٢٠) سنة على وفاة الإمام الأوزاعي (رضي الله عنه) إلا أن أتقدم ببعض الاقتراحات لعلها تسهم في تكريم هذا الإمام الجليل والفقيه الرائد، منها:

١ ـ إعلان عام ١٤١٥ ـ ١٤١٦هـ، ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥م عام تكريم الإمام الأوزاعي، فلا يقتصر التكريم على هذه الذكرى بل لا بد من مشاركة المؤسسات كافة ومساهمتها في تكريمه بالطريقة التي تراها مناسبة.

٢ ـ تنظيم مؤتمر علمي لبناني ـ عربي يعقد في بيروت، يشارك فيه علماء من مختلف المناطق والدول، للبحث في فقه وعلم الإمام الأوزاعي ودوره العلمي والسياسي والاجتماعي.

٣ ـ ضرورة تبني معاهد وكليات الشريعة والدراسات الإسلامية والوطنية والحقوقية تدريس كل ما يتعلق بفقه وعلم وتاريخ الإمام الأوزاعي لانعكاس ذلك إيجاباً على الواقع الفقهي والعلمي والوطني.

٤ ـ ضرورة الاهتمام بمسجد وضريح الإمام الأوزاعي في منطقة الأوزاعي وتوسعته، وجعله معلماً هاماً من معالم المسلمين واللبنانيين. فلو أن ضريح الإمام الأوزاعي في دولة أخرى لكنا رأينا مدى الاحترام والتقدير والتبجيل لهذا الإمام العالم الصالح المصلح. فالموقع يحتاج إلى اهتمام ورعاية أكثر نظراً لمكانة الإمام عند اللبنانيين والعرب. ولا بد من اتخاذ قرار جريء يقضي بعدم دفن الموتى في رحاب المسجد والضريح، إذ لو استمر هذا الأسلوب في التبرك على مدار السنين والعصور، لتحول المسجد إلى مقبرة أخرى من مقابر المسلمين. ونسوق هذا الاقتراح استناداً إلى الأحاديث الشريفة عن الرسول محمد ﷺ الذي نهى عن دفن الموتى في المساجد، أو تحويل القبور إلى مساجد.

٥ ـ العمل على إعادة تكوين وبناء زاوية الإمام الأوزاعي في سوق الطويلة وفق نمط معماري أثري، باعتبارها أقدم أثر ومعلم من معالم المسلمين في باطن بيروت، وباعتبارها من الأبنية الأثرية.

٦ ـ إطلاق اسم الإمام الأوزاعي على ثانوية رسمية أو معهد عال رسمي باعتباره رمزاً من رموز الوحدة الوطنية، على غرار ما قدم به المركز الإسلامي للتربية ـ الطريق الجديدة بإطلاق اسمه على كلية من كلياته، وهي «كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية» وكانت هذه أمنية من أماني المرحوم أنيس النصولي منذ عام ١٩٥٠.

٧ ـ استصدار طوابع بريدية بمناسبة هذه الذكرى تحمل اسم الإمام الأوزاعي صادرة عن وزارة البريد والاتصالات السلكية واللاسلكية.

٨ ـ طبع وإعادة طبع المؤلفات الصادرة عن حياته وأعماله، وضرورة جمع اجتهاداته الفقهية وعلومه الشرعية.

٩ ـ تضمين منشورات وزارة السياحة معلومات علمية وسياحية وأثرية عن الإمام الأوزاعي ومكان ضريحه على غرار ما تفعل وزارات السياحة في العالم.

١٠ ـإعلان يوم واحد من كل عام «ذكرى الإمام الأوزاعي» والدعوة لزيارة ضريحه ومسجده.

١١ ـ إطلاق اسم الإمام الأوزاعي على شارع هام من شوارع بيروت في المنطقة الشرقية أو في جبل لبنان، إضافة إلى الشارع المسمى باسمه في منطقة الحرج في بيروت الغربية وذلك اعترافاً بفضله وعلمه. أضف إلى ذلك أن التنظيمات الهندسية الجديدة في باطن بيروت يجب أن تأخذ بعين الاعتبار تسمية شارع أو ميدان أو ساحة باسم الإمام الأوزاعي كعلم من أعلام بيروت والعالم العربي والإسلامي.

اتحفتنا زيارة الأوزاعي … عند بيروت بالضيا والشعاع
إذ قصدنا لها عشية يوم … كان فيه بمن أحب اجتماعي
حضرة تملأ القلوب سروراً … وابتهاجاً بأمر رب مطاع
حضرة نورها يزيد فيهدي … في الدياجي بسرعة الالتماع
شط بحر عليه للعلم بحر … طافح بالكمال والانتفاع
كان لله عابداً باجتهاد … تابعاً للكتاب والإجماع
يا أبا عمرو الذي عمرتنا … زورة منه عند خير البقاع
يا أبا عمرو العظيم المزايا … عند رب الورى الكريم المساعي

وقال:

كنا ببيروت الأنيسة في الهنا … بالأكرمين ومذ دعانا الداعي
نلنا المقاصد والمنى توزعت … عنا الهموم بزورة الأوزاعي